الدعوة إلى توحيد الله (منزلتها وقواعدها)

The Call (Da'wa) For Monotheism
(The Oneness Of Allah Almighty): Its Status And Rules

د. سلطان بن عبد الرحمن العميري
Soltan Ibn Abd Al Rahman El Emiery
أستاذ مشارك بقسم العقيدة
في جامعة أم القرى، مكة

١٤٤٣هـ ٢٠٢١م

ملخص البحث

تقوم فكرة البحث على بيان معنى الدعوة إلى التوحيد، وأنّها شاملة لتقويته في نفوس المسلمين، ولتصحيح ما وقع فيه من انحراف عند بعض المسلمين، ولإيجاده عند من كان فاقدا له من الكفار.

وتقصد الدراسة إلى بيان فضل الدعوة إلى التوحيد عن طريق النصوص الشرعية، وجمع أهم القواعد والضوابط المعينة على ضبط سلوك الدعاة إلى التوحيد، بحيث يكونون محققين لمقاصد تلك الدعوة الشريعة.

الكلمات المفتاحية: الدعوة-التوحيد-قواعد- ضوابط

Abstract:

The idea of the research is based on clarifying the meaning of the call (Da'wa) to monotheism (the Oneness of Allah Almighty), and that it is comprehensive to be strengthened in the souls of Muslims, and to correct the deviation it suffers among some Muslims, and to instill faith in the souls of those who were missing it from among the disbelievers.

The study aims to explain the merit of the call to monotheism (the oneness of Allah Almighty) through the Islamic (Sharia) scriptures, and to collect the most important rules and regulations which help the control of the behavior of the callers to monotheism, so that they will achieve the purposes of that Sharia call (Da'wa).

Keywords: Da'wa – monotheism – oneness – rules – regulations.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد؛ فإنَّ الدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه من أعظم الأعمال التي يقوم بها المسلم، ومن أعلاها قدرا وأرفعها منزلة، وأشرفها مقصدا.

ومن أعلى مقامات الدعوة إلى الله تعالى الدعوة إلى توحيده والابتعاد عن الإشراك بالله، فهذه الدعوة أول دعوات الأنبياء، وأساسها وقُطْبُ الرَّحَى فيها[1].

ولأجل هذا جاء هذا البحث لبيان معنى الدعوة إلى توحيد الله، وبيان منزلتها، وذكر القواعد والضوابط التي تُسَدِّدُ من نهجها وتُقَوِّم من مسلكها، حتى يغدو الداعية إلى توحيد الله سائرا على الطريق المستقيم، ومصيبا للمقاصد المرجوة من دعوته.

- **أهمية البحث:**

للبحث في الدعوة إلى التوحيد وبيان منزلتها وقواعدها وضوابطها أهمية بالغة، ويظهر ذلك بأمور:

الأمر الأول: ضبط مفهوم الدعوة إلى التوحيد، وهذا من أقوى ما يُعِينُ على تحقيق مراد الشريعة من غايتها في أكبر أصولها.

الأمر الثاني: تَرْشِيد طرق الدعوة إلى التوحيد، وتحقيق الحكمة في هذه الدعوة الشريفة.

الأمر الثالث: تقليل منافذ الخطأ ومداخله الواردة على الدعاة إلى توحيد الله.

- **الدراسات السابقة:**

لم أقف -بعد البحث والتنقيب- على دراسة سابقة أَفْرَدَتْ موضوعا، جمع بين بيان منزلة الدعوة إلى التوحيد وذكر القواعد والضوابط التي تقوم عليها تلك الدعوة الشريفة، وإنّما الموجود المنشور يقتصر على بيان فضل الدعوة أو حكمها، وأمّا الجمع بين ذلك وبين ذكر القواعد المؤثرة في الدعوة إلى التوحيد فلم أجده.

- **منهج البحث:**

اعتمد البحث على مزيج من المناهج البحثية، فقد اعتمد على منهج الاستقراء والتتبع، ومنهج التحليل والاستنباط[2].

---

(١) لا بد من التنبيه على أنَّ البحث لا يقوم على حصر الدعوة إلى الإسلام في الدعوة إلى التوحيد، فإنَّ الكلام بَيِّنٌ جدا في أنَّ مجالات الدعوة إلى الإسلام متعددة، وأنَّ أعلاها قدرا الدعوة إلى التوحيد.

(٢) لم أُعَرِّف بالعلماء الذين ذُكروا في البحث؛ لأنهم من الأعلام المشهورين في العلم الشرعي.

- **خطة البحث:**

يقوم هيكل البحث على مقدمة وتمهيد ومبحثين وخاتمة.

أمّا المقدمة؛ ففيها بيان فكرة البحث وأهدافه وخطته.

وأمّا التمهيد؛ ففيه بيان معنى التوحيد ومعنى الدعوة إلى التوحيد وبيان أنواعها.

وأمّا المبحث الأول، ففيه بيان منزلة الدعوة إلى التوحيد.

وأمّا المبحث الثاني، ففيه ذكر القواعد والضوابط التي تقوم عليها الدعوة إلى التوحيد.

وأمّا الخاتمة، ففيها ذكر أهم النتائج والتوصيات.

التمهيد

معنى التوحيد ومعنى الدعوة إليه

أولا: معنى التوحيد:

يرجع معنى التوحيد في اللغة إلى الانفراد والإفراد، فتوحُّد الشيء: انفراده عن غيره، وتوحيده: جعله منفردا عن غيره، والحكم عليه بذلك، يقول ابن فارس: «الواو والحاء والدال: أصل واحد يدل على الانفراد. من ذلك: الوحدة، وهو واحد قبيلته، إذا لم يكن فيهم مثله»[(١)].

ولفظ «التوحيد» لفظ شرعي جاء استعماله في عدد من النصوص، ومن ذلك: أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين بدنة، وأن عَمْرًا سأل النبي ﷺ عن ذلك، فقال: «أما أبوك فلو كان أَقَرَّ بالتوحيد، فَصُمْتَ وتَصَدَّقْتَ عنه، نفعه ذلك»[(٢)].

وعن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يُعَذَّبُ ناس من أهل التوحيد في النار حتى يكونوا فيها حُمَمًا، ثم تدركهم الرحمة، فيخرجون ويطرحون على أبواب الجنة»[(٣)].

وإذا ثبت أن لفظ التوحيد شرعي، ومعناه حقيقة شرعية، فإن مقتضى ذلك أن الشريعة قد بينته غاية البيان، وأوضحته غاية الوضوح، فيجب الاعتماد على النصوص الشرعية في معرفة حقيقته والرجوع إليها في تحديد ضوابطه ومعالمه وأدلته وأحكامه.

وثبت عن طريق الاستقراء أنَّ لفظ التوحيد إذا أُطْلِقَ في النصوص الشرعية، فإنه يراد به من حيث الأصل: توحيد الألوهية، فإذا جاء فيها بأنه أقر بالتوحيد أو أهلّ بالتوحيد أو دخل في التوحيد، فالمقصود بذلك كله: توحيد العبادة، فذلك هو الأصل في إطلاق لفظ التوحيد في النصوص الشرعية[(٤)].

---

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس، أحمد بن فارس (٩٠/٦)، تحقيق/ عبد السلام هارون، دار الفكر-١٣٩٩ه=١٩٧٩م.

(٢) رواه أحمد في مسنده، مسند المكثرين من الصحابة، مسند عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، (٣٠٧/١١)، حديث رقم (٦٧٠٤)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١-١٤٢١هـ =٢٠٠١م، وصححه الألباني، ينظر: السلسلة الصحيحة (٨٧٣/١)، مكتبة المعارف، ط١٤١٥هـ=١٩٩٥م.

(٣) رواه الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أبواب صفة جهنم (٢٩٤/٤) حديث رقم (٢٥٩٧)، وقال: حديث حسن صحيح، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

(٤) ينظر: الحجة في بيان المحجة، قوام السنة الأصفهاني (١٠٧/١)، تحقيق/ محمد بن ربيع بن هادي، دار الراية، السعودية،

وقد كان هذا المعنى شائعا مستقرا عند علماء السلف، قال الشافعي: «سُئل مالك عن الكلام والتوحيد، فقال: محال أن نظن بالنبي ﷺ أنه علَّم أمته الاستنجاء، ولم يعلمهم التوحيد، والتوحيد ما قاله النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله»، فما عُصم به الدم والمال: حقيقة التوحيد»[١]، وقال ابن سُرَيْج الشافعي: «توحيد أهل العلم وجماعة المسلمين: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله، وتوحيد أهل الباطل من المسلمين: الخوض في الأعراض والأجسام»[٢]، وقال الدارمي: «تفسير التوحيد عند الأمة وصوابه: قول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، ثم ذكر عددا من الأحاديث وقال معلقا: فهذا تأويل التوحيد وصوابه عند الأمة»[٣].

وقد ذكر العلماء تعاريف كثيرة لحقيقة التوحيد في الشريعة[٤]، **ومن أجمع الحدود -في تعريف التوحيد- أن يقال: هو إفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات، ونفيها عمّا سواه**[٥].

فهذا الحد جمع بين ذكر خاصية التوحيد وشمول متعلقاته.

قوله: «إفراد»، وصف عام يدل على حقيقة الفعل الصادر من العبد، والمراد بالإفراد هنا معناه الشرعي الذي يتضمن معنى التعبد.

قوله: «الله تعالى»، يخرج كل ما عداه سبحانه، من المخلوقات.

قوله: «بما يختص به»، وصف مميز، يبين أنّ الإفراد والتوحيد متعلق بالخصائص في كمالها وأصلها.

قوله: «من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات»، وصف مميز يحدد متعلقات التوحيد الشرعية، ويبرزها، وليس شرطا أن يحصل هذا القيد بالمصطلحات نفسها، وإنما العبرة بالمعاني وتحققها في النفوس.

ط٢-١٤١٩هـ=١٩٩٩م؛ والرد على بشر المريسي، الدارمي (١٥٢/١)، تحقيق/ محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية-١٣٥٨هـ؛ وفتح الباري، ابن حجر (٦٥/١)، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩ه.

(١) سير أعلام النبلاء، الذهبي، محمد بن أحمد (٢٦/١٠)، تحقيق/ مجموعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣-١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.

(٢) الحجة في بيان المحجة، قوام السنة الأصفهاني، إسماعيل بن محمد (١٠٧/١).

(٣) الرد على بشر المريسي، الدارمي، عثمان بن سعيد (١٥٢/١).

(٤) ينظر: لوامع الأنوار البهية، السفاريني، محمد بن أحمد (٢٦١/١)، مؤسسة الخافقين-دمشق، ط٢-١٤٠٢ه=١٩٨٢م؛ والقول السديد شرح كتاب التوحيد، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر (٣٩)، تحقيق/ المرتضى الزين أحمد، مجموعة التحف النفائس الدولية، ط٣.

(٥) ينظر: مجموع الفتاوى، ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم (٧٤/٣)، تحقيق/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف-المدينة النبوية-١٤١٦هـ=١٩٩٥م؛ والقول المفيد، العثيمين، محمد بن صالح (١١/١)، دار ابن الجوزي-المملكة العربية السعودية، ط٢-١٤٢٤هـ.

قوله: «ونفيها عمّا سواه»، قيد يحقق ركنا من أركان التوحيد، وهو النفي، ومنتهاه: تحقيق انفراد الله بما يتحقق به التوحيد.

وإنما ذُكر هذا القيد مع أنه مُتَضَمَّنٌ في القيد الأول من باب التأكيد على حقيقة التوحيد، والكشف عن ارتكازها على معنى التَّوَحُّد والانفراد لله سبحانه، ونفي الشريك بالتصريح أولى من نفيه بالتضمن، ولا سيما في مثل الحقائق الكبرى في الدين.

وتأكيد النفي في حقيقة التوحيد جارٍ على طريقة الشريعة، ومن ذلك ما جاء في حديث عبادة ابن الصامت رضي الله عنه: «من شهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له...»[(١)].

ثانيا: معنى الدعوة إلى التوحيد:

لفظ الدعوة مشتق من الفعل الثلاثي: دعا يدعو دعوة، ولهذه اللفظة عدة معانٍ في اللغة، منها: النداء، والطلب، والتَّجَمُّع، والدُّعاء، والسؤال، والاستمالة[(٢)].

فمعنى الدعوة إلى التوحيد: النداء للناس والطلب منهم والسعي إلى إقناعهم بالالتزام بتوحيد الله تعالى في أصله وكماله.

وهذا التعريف يدل على أنّ الدعوة إلى التوحيد ليست مقتصرة على الكفار، وإنّما هي شاملة للمسلمين أيضا، فكل الناس تشملهم الدعوة إلى توحيد الله.

وبناء عليه يقال: الدعوة إلى التوحيد تنقسم إلى ثلاثة أنواع:

النوع الأول: تقوية التوحيد، وذلك بأن يقوم الدعاة إلى تعميق التوحيد وتقويته في نفوس المسلمين، فمن المعلوم أنَّ التوحيد درجات، وكثير من المسلمين يعيش أدنى درجات التوحيد مع سلامته من الوقوع فيما يناقضه، وهو في حاجة إلى ما يُقَوِّي توحيده لله تعالى، حتى يبلغ أعلى درجة ممكنة فيه.

والمسلمون عموما في حاجة شديدة إلى هذا المقصد، فكما أنّه ينبغي للدعاة أن يهتموا بالمضامين الدعوية التي تُقَوِّي إيمان الناس بالله، فعليهم أن يهتموا بالمضامين الدعوية التي تقوي توحيدهم بالله، فَيُذَكِّرُونهم بها في الخطب والمواعظ وغيرها.

---

(١) رواه البخاري في صحيحه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب قوله: «يأهل الكتاب لا تغلوا في دينكم»، (١٦٥/٤) حديث رقم (٣٤٣٥)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١-١٤٢٢ه؛ ومسلم في صحيحه عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار، (٥٧/١) حديث رقم (٢٨)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

(٢) ينظر: لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم (٢٥٧/١٤-٢٦٢)، دار صادر-بيروت، ط٣-١٤١٤هـ.

وكثير من الناس يتصور أن الدعوة إلى التوحيد منحصرة في دعوة من وقع في انحراف إلى الشرك ونحوه، ويغفل عن أن ثَمَّةَ نوعا آخر من الدعوة إلى التوحيد لا بد من الاعتناء به.

النوع الثاني: إيجاد التوحيد، وذلك بأن يقوم الدعاة إلى دعوة الكفار الفاقدين للتوحيد إلى اعتقاده والأخذ به ونبذ ما هم عليه من الشرك والكفر.

النوع الثالث: تصحيح التوحيد، وذلك بأن يقوم الدعاة إلى تنبيه الناس المعتقدين للتوحيد، ولكنهم عندهم انحراف اعتقادي أو عملي متعلق بأصله أو كماله، ويسعون إلى إنقاذهم منه بالحجة والبرهان والإقناع، ويكشفون غلطها وانحرافها.

- **والانحراف الواقع في التوحيد نوعان:**

الأول: انحراف سلوكي، والمراد به: أن يقع من المرء انحراف توحيدي من غير تَصَوُّر سابق ولا مقدمات علمية مقررة، وهذا حال كثير من جهلة المسلمين، كمن يتوكل على الأسباب أو على غير الله تعالى، أو يضعف تعلقه بالله وإقباله عليه.

الثاني: انحراف علمي، والمراد به أن يَتَبَنَّى المرء تصورات وأفكارا تناقض حقيقة التوحيد أو كماله، كمن يتبنى أن الاستغاثة بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ليست شركا مناقضا للتوحيد، ونحو ذلك.

والدعاة إلى التوحيد ينبغي لهم أن يهتموا بكل هذه الأنواع، وأن يعطوا كل نوع ما يستحقه من الاهتمام والحرص.

وبهذا التقسيم يتحرر مفهوم الدعوة إلى التوحيد وتنجلي حقيقته، فإن كثيرا من الناس يتوهم أن الدعوة إلى التوحيد خاصة بالكفار، وبمن وقع في الانحراف في التوحيد من المسلمين، والحقيقة أن كل الناس في حاجة إلى الدعوة إلى التوحيد، فبعضهم في حاجة إلى الدعوة إلى تقوية التوحيد في قلبه، وبعضهم في حاجة إلى تصحيح التوحيد من الانحراف الذي وقع فيه، وبعضهم في حاجة إلى إيجاد التوحيد في قلبه.

المبحث الأول

منزلة الدعوة إلى توحيد الله تعالى

لا شك أن الدعوة إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة دون غيره من أعظم الأعمال شرفا، وأعلاها قدرا في شرع الله، وأسماها منزلة وعلوا، ويدل على هذه الحقيقة عدد من الأدلة، من أهمها:

الدليل الأول: أن الدعوة إلى التوحيد هي سبيل الأنبياء وأتباعهم، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [سورة يوسف:١٠٨]، فهذه الآية تبين بأن المنهج الذي يسير عليه النبي ﷺ وأتباعه هو الدعوة إلى الله بالعلم والبصيرة، وأساس ما تقوم عليه الدعوة: توحيد الله ونبذ الشرك به.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ۖ﴾ [النحل:٣٦]، فهذه الآية تدل على أن الدعوة إلى الله تعالى وظيفة كل الأنبياء والرسل، وكفى بذلك شرفا وعلوا.

الدليل الثاني: أن التوحيد هو الأمر الذي يبدأ كل الرسل بالدعوة إليه، وذلك أن الله تعالى يذكر عن كل رسول أن أول ما يبدأ به دعوته هو الأمر بعبادة الله وحده دون ما سواه، والآيات في هذا المعنى كثيرة، قال الله عن نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٩﴾﴾ [الأعراف:٥٩]، وقال عن هود عليه السلام: ﴿۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأعراف:٦٥]، وقال عن صالح عليه السلام: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ﴾ [الأعراف:٧٣]، وقال عن شعيب عليه السلام:﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف:٨٥].

ومن ذلك بيان النبي ﷺ أن الدعوة إلى التوحيد هي أول ما يُبدأ به، كما في حديث إرسال معاذ بن جبل رضي الله عنه إلى اليمن، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما-: «أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذا إلى اليمن قال: إنك تأتي قوما من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله -وفي رواية: إلى أن يوحدوا الله- فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم، فإن هم أطاعوك لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين

الله حجاب»[١].

وهذا الحديث كما أنه دال على وجوب الدعوة إلى التوحيد، فهو دال في الوقت نفسه على وجوب الابتداء بها، فتعلق الوجوب في دعوة التوحيد بأمرين: بأصلها وتقديمها.

وفيه تنبيه للداعية المسلم على أن الواجب عليه أن يبدأ بعرض الحق الذي عنده والدعوة إليه، ولا يجعل بدايته الاهتمام بشبهات المخالفين واعتراضاتهم، فالمُقَدَّم في الدعوة من حيث الأصل بيان الحق وبيان أدلته، ثم بعد ذلك يكون الوقوف مع الشبهات والاعتراضات.

الدليل الثالث: أن التوحيد هو أول ما يُوصَى به من الوصايا الكبرى، كما في قوله تعالى: ﴿۞وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣﴾ [الإسراء:٢٣].

وكذلك نقيضه وهو الشرك، أول ما يُبدأ به في ذكر النواهي، كما في قوله تعالى: ﴿۞قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ١٥١﴾ [الأنعام:١٥١].

فهذه الآيات تدل بجلاء على منزلة الدعوة إلى التوحيد والتحذير مما يناقضه، وأنه أول ما يجب على المسلمين الاهتمام به والتركيز عليه.

الدليل الرابع: حرص النبي ﷺ على إرسال الدعاة إلى التوحيد، إلى الملوك والأمراء، إلى ما قبل موته ﷺ، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أنّ رسول الله ﷺ كتب قبل موته إلى كسرى، وإلى قيصر، وإلى النجاشي، وإلى كل جبار؛ يدعوهم إلى الله»[٢].

فبعد صلح الحديبية أرسل النبي ﷺ دحية الكلبي إلى هرقل عظيم الروم، بكتاب جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى هرقل عظيم الروم، سلام على من اتبع الهدى: أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت عليك إثم الأريسيين، ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما، كتاب المغازي، باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن قبل حجة الوداع، (١٦٢/٥)، حديث رقم (٤٣٤٧)؛ ومسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما، كتاب الإيمان، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، (٥٠/١)، حديث رقم (١٩).

(٢) رواه مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه، كتاب الجهاد والسير، باب كتب النبي ﷺ إلى ملوك الكفار يدعوهم إلى الله عز وجل، (٣٩٧/٣)، حديث رقم (١٧٧٤)، والترمذي في سننه، أبواب الاستئذان والآداب، باب في مكاتبة المشركين، (٣٦٥/٤)، حديث رقم (٢٧١٦).

تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ [آل عمران:٦٤]»[(١)].

وأرسل النبي ﷺ عبد الله بن حُذافة بكتاب إلى كسرى ملك الإمبراطورية الفارسية، جاء فيه: بسم الله الرحمن الرحيم من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس، سلام على من اتبع الهدى، وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلى الناس كافة، لينذر من كان حيًّا، أسلِم تسلَم، فإن أبيت عليك إثم المجوس»[(٢)].

وأرسل النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري إلى النجاشي ملك الحبشة بكتاب، جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى النجاشي ملك الحبشة، أسلم أنت، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن وأشهد أن عيسى ابن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة، فحملت به، فخلقه من روحه ونفخه، كما خلق آدم بيده، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة عن طاعته، وأن تتبعني وتؤمن بالذي جاءني فإنّي رسول الله، وإني أدعوك وجنودك إلى الله -عز وجل- وقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصيحتي، والسلام على من اتبع الهدى»[(٣)].

الدليل الخامس: بيان النبي ﷺ لفضل الدعوة إلى التوحيد وعظيم الأجر المترتب عليها، فعن سهل بن سعد رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال يوم خيبر: «لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله، يفتح الله على يديه. فبات الناس يدوكون ليلتهم، أيهم يعطاها؟ فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ﷺ كلهم يرجو أن يعطاها، فقال: أين علي بن أبي طالب؟ فقيل: هو يشتكي عينيه. قال: فأرسلوا إليه، فأتي به، فبصق في عينيه ودعا له، فبرأ كأن لم يكن به وجع، فأعطاه الراية، قال: انفذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم، ثم ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه، فوالله لأن يهدي الله بك رجلا واحدا خير لك من حمر النعم»[(٤)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، عن أبي سفيان رضي الله عنه، كتاب تفسير القرآن، باب قل: يا «أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله»، (٣٥/٦)، حديث رقم (٦٢٦٠).

(٢) ينظر: تاريخ الرسل والملوك، الطبري، محمد بن جرير (٦٥٤/٢، ٦٥٥)، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢-١٣٨٧هـ=١٩٦٧م.

(٣) المصدر السابق (٢٥٢/٢).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه، كتاب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي...، (١٨/٥)، حديث رقم (٣٧٠١)؛ ومسلم في صحيحه عن سهل بن سعد رضي الله عنه، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، (٣٧٢/٤)، حديث رقم (٢٤٠٦).

فهذا الحديث يدل على أن توفيق الإنسان لأن يهدي أحدا من الناس إلى التوحيد خير له من أفضل أنواع الأموال، والمراد بحُمْر النَّعَم: الإبل الحُمْر، وهي أنفس أموال العرب وأعلاها، والمراد بهذا أنه خير من أن تكون لك تلك الإبل فتتصدق بها في سبيل الله.

الدليل السادس: الحكم على الدعوة إلى التوحيد بأنها أفضل الأعمال، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت:٣٣].

ولفظ الآية عام يشمل كل ما يدخل في الدعوة إلى دين الله، ولا شك أن أعظم ما يدخل في ذلك الدعوة إلى التوحيد، قال ابن عطية: «هو لفظ يعم كل من دعا قديما وحديثا إلى الله تعالى وإلى طاعته من الأنبياء والمؤمنين، والمعنى: لا أحد أحسن قولا ممن هذه حاله»(١).

الدليل السابع: إقامة الجهاد من أجل الدعوة إلى التوحيد، كما في قوله ﷺ: «أُمِرْتُ أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله»(٢).

فجهاد النبي ﷺ وقتاله، إنّما كان من أجل دعوة الناس إلى إخلاص العبادة لله عز وجل، والبراءة من الشرك وأهله.

(١) المحرر الوجيز، ابن عطية، عبد الحق بن غالب (١٥/٥)، تحقيق/ عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط١-١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.

(٢) رواه البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كتاب الإيمان، باب: «فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم، (١٤/١)، حديث رقم (٢٥)؛ ومسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله محمد رسول الله، (٥٣/١)، حديث رقم (٢٢).

المبحث الثاني

قواعد الدعوة إلى التوحيد وأصولها

مع الإقرار بضرورة الدعوة إلى التوحيد ووجوبها ولزومها على كل الدعاة إلى الله، إلاّ أنّ ثم قواعد وأصولا لابُد من مراعاتها، وهي كثيرة متعددة، ومن أهمها:

الأصل الأول: أنّه يجب من حيث الأصل تقديم الدعوة إلى التوحيد، فالدعوة إلى التوحيد، والتحذير من الشرك، وصحة العقيدة وسلامتها هما الأصل الأول في دعوة المرسلين، من لدن نوح إلى محمد، عليهم السلام، وهذا الأمر ظاهر بَيّن، قال ابن تيمية: «قد عُلِمَ بالاضطرار من دين الرسول ﷺ، واتفقت الأمة: أن أصل الإسلام وأول ما يؤمر به الخلق: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فبذلك يصير الكافر مسلما، وإذا لم يتكلم مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين»[1].

ويدل على الأصل كل الأدلة التي تدل على أنَّ الأنبياء كلهم إنّما ابتدؤوا دعوتهم بالتوحيد، ومن أبلغ الدلالات في ذلك أن شعيبا كان قومه معروفين بالفساد في الكيل والتطفيف فيه، ومع ذلك بدأ دعوته لقومه بالدعوة إلى التوحيد، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدۡيَنَ أَخَاهُمۡ شُعَيۡبٗاۚ قَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥۖ قَدۡ جَآءَتۡكُم بَيِّنَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡۖ فَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ٨٥﴾ [الأعراف:٨٥].

فهذه الأدلة وغيرها تدل بوضوح على أن الأصل والقاعدة في كل دعوة إلى الله تعالى أن تبدأ من الدعوة إلى التوحيد وتصحيحه وتحقيقه عند المسلمين.

الأصل الثاني: أنه يجب التجرد لله في الدعوة إلى التوحيد، ومعنى ذلك: أنه يجب على الدعاة في دعوتهم إلى توحيد الله تعالى ألا يُدخلوا في ذلك المصالح الشخصية ولا المنافع الدنيوية، وإنما يجب عليهم أن تكون دعوتهم خالصة لله تعالى، ولا يراد بها إلا ما عنده من الأجر والثواب.

ويدل على هذا الأصل كل النصوص الشرعية الدالة على وجوب الإخلاص لله تعالى، كقوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر:٢]، وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ [الزمر:١٢].

---

(١) نقلا عن تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، سليمان بن عبد الله آل الشيخ ص/٩٨، تحقيق/ زهير الشاويش، المكتب الإسلامي-بيروت، دمشق، ط١-١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.

ويدل عليه النصوص التي جاءت بالإخلاص في خصوص الدعوة إلى الله تعالى، كما في قوله: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [يوسف: ١٠٨]، فقوله تعالى: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾، هذا القول يتضمن معنيين:

الأول: بيان مجال الدعوة، وأنه دعوة إلى الله وتوحيده وعبادته وحده دون ما سواه وليست دعوة إلى غيره أو إلى شيء من أمور الدنيا.

والثاني: بيان الغرض من الدعوة وأنه لأجل الله تعالى والإخلاص في طلب ما عنده، لا يراد به رياء ولا حظ من الدنيا[١].

الأصل الثالث: أن قضايا التوحيد متفاوتة، ومعنى ذلك: أن ما يدخل في التوحيد ليس على مرتبة واحدة، فبعضها من الأصول وبعضها من الفروع، وبعضها قطعي وبعضها ظني[٢].

والداعية إلى التوحيد يجب عليه أن يدرك الفرق بين مراتب القضايا المندرجة ضمن التوحيد، ويعلم أن بعضها أعلى من بعض، فيقدم من حيث الأصل الأعلى والأهم.

ويجب على الداعية في تحديده لمراتب القضايا المندرجة ضمن التوحيد ألا يعتمد إلا على دلالات النصوص الشرعية، وأن يخلص نفسه من التأثر بالضغوط والانفعالات.

الأصل الرابع: لا بد من الشمول في الدعوة إلى التوحيد، ومعنى ذلك أن المجالات المتعلقة بالتوحيد واسعة ومتعددة؛ فبعضها متعلق بجانب الربوبية، وبعضها متعلق بجانب الألوهية، وبعضها متعلق بجانب الأسماء والصفات، وبعضها متعلق بالأصول التي يقوم عليها التوحيد، وبعضها متعلق بالبراهين الدالة عليه، وبعضها متعلق بالشرائع المندرجة فيه، وبعضها متعلق بضعف معاني التوحيد في النفوس، وبعضها متعلق بتسلط الشبهات المنافية للتوحيد على القلوب.

وهذه هي طريقة النصوص، فإن النصوص الشرعية في بيانها للتوحيد، لم تترك أمرا يتعلق به إلا أوضحته، فبينت النصوص حقيقة التوحيد وأدلته وبراهينه، وأحكامه وآثاره، والوسائل التي تؤدي إلى تعزيزه وتقويته في النفوس، وكذلك بينت حقيقة نقيضه، وهو الشرك، وأوضحت أدلة بطلانه وآثاره على الحياة.

فالحديث عن محبة الله تعالى وضرورتها ووسائل تقويتها مثلا من أقوى مسالك الدعوة إلى التوحيد، وكذلك الحديث عن مراقبة الله ورجائه والتوكل عليه وسوق الأدلة والشواهد التي تُعَمِّق هذه المعاني في

---

(١) انظر: القول المفيد، العثيمين (١/١٢٨-١٢٩).

(٢) انظر: قانون التأسيس العقدي، سلطان العميري ص/٢٣٥-٢٣٧، مركز تكوين للدراسات والبحوث-السعودية، ط٣-١٤٤١هـ=٢٠٢٠م.

نفوس الناس.

فلا بد للدعاة أن يستوعبوا كل هذه الجوانب بالدعوة تقوية وتصحيحا، والتركيز على جانب دون جانب يمثل خللا كبيرا في الدعوة إلى ذلك الأمر العظيم.

الأصل الخامس: ليس كل قضية توحيدية مقدمة على غيرها، ومعنى ذلك: أنه يجب على الداعية أن يدرك بأن بعض المسائل الخارجة عن دائرة التوحيد هي أهم وأعلى قدرا في دين الله تعالى.

فإذا ثبت أن بعض ما يدخل في دائرة التوحيد قد يكون من الفروع أو من الأمور الظنية، أو من الأمور المنافية لكمال التوحيد وليس لأصله، فإن بعض قضايا الدين الأخرى مما لا يدخل في دائرة التوحيد قد يكون من الأصول أو من القطعيات أو مما فعله يؤدي إلى الخروج من الدين.

ومن الأمثلة على ذلك لو أن إنسانا كان تاركا للصلاة، ومع ذلك يقع في الحلف بغير الله أو التعلق بالنجوم والكواكب على أنها أسباب مقدرة من الله.

فالواجب في هذه الحالة أن يُدعى من حيث الأصل إلى الالتزام بالصلاة قبل دعوته إلى ترك الحلف بغير الله؛ لأن شأن الصلاة أعظم وأجل في دين الله، فتركها يعد كفرا مخرجا من الملة عند كثير من العلماء، وأما الحلف بغير الله أو التعلق بالنجوم على أنها أسباب فليست كفرا مخرجا من الملة.

الأصل السادس: قد تُؤَخَّر الدعوة إلى التوحيد لمصلحة الدعوة إليه، ومعنى هذا الأصل: أنه مع القول بأن الواجب أن يبدأ الداعية بالدعوة إلى التوحيد وعبادة الله تعالى إلا أن بعض الظروف قد تضطره إلى تأخير ذلك وتقديم غيره عليه مما يساعد على قبول دعوة التوحيد، كأن يشتغل الداعية بإصلاح العلاقة بينه وبين الواقعين في الشرك ليدعوهم بعد ذلك إلى التوحيد، وكأن يقدم الدعوة إلى ترك بعض العادات القبيحة ليتمهد الطريق أمامه للدعوة إلى ترك الشرك الأكبر، ونحو ذلك، ويزيد من وضوحه الأصل الآتي:

الأصل السابع: يجب الحرص على كل ما يؤدي إلى قبول الدعوة إلى التوحيد، ومعنى هذا الأصل: أنه ليس المطلوب من الداعية أن يقوم بالدعوة إلى التوحيد فقط، ويسقط الوجوب عنه، وإنما المطلوب أن يسلك كل طريق يؤدي إلى انتفاع الناس بدعوته ويجعلهم يتمسكون بالتوحيد ويبتعدون عن الشرك.

لا ريب أنّه ليس مطلوبا من الداعية أن يدخل الناس في التوحيد، ولكن أيضا ليس مطلوبا منه مجرد الدعوة، وإنما لا بد من الالتزام بكل ما يؤدي إلى قبولها والانتفاع بها.

وقد ذكر جملة من العلماء أنه يجب على الداعية أن يبدأ بما يمكن قبوله، وبما يمكن فهمه حتى لا ينفر الناس عند الدعوة، وجعلوا ذلك من الحكمة التي أُمر بها الدعاة، قال السعدي: «من الحكمة الدعوة بالعلم لا بالجهل والبُداءة بالأهم فالأهم، وبالأقرب إلى الأذهان والفهم، وبما يكون قبوله أتم،

وبالرفق واللين»[١].

فإن قيل: يشكل على هذا ما سبق ذكره من أن بعض الطوائف والجماعات نازعوا في أولية الدعوة إلى التوحيد بتقديم غيرها عليها.

قيل: هذا ليس مشكلا؛ لأن البحث هنا عن الحالات الاستثنائية التي يجب أن تُرَاعَى في الدعوة إلى التوحيد، وأما ما قرره أولئك فهو أشبه بالأصل المُطَّرِد عندهم.

الأصل الثامن: أساليب الدعوة إلى التوحيد والمداخل إليها تختلف باختلاف الظروف والأحوال، والمراد بهذا الأصل أنه ليس للدعوة إلى التوحيد وسيلة واحدة أو مدخل متحد يُطَبَّق في كل البلدان والأزمان، وإنما لكل بلد وزمن وسيلة تناسبه، وكذلك له مدخل يناسبه، فالشعوب الاشتراكية لها وسيلة تناسبها في الدعوة ومدخل من المعارف والأحوال تناسبها، وكذلك الحال في الشعوب الرأسمالية، والشعوب الخرافية لها وسيلة تناسبها في الدعوة، وللنفوذ إلى دعوتهم والتأثير فيهم مدخل يناسبهم.

وقد نبه السعدي إلى أن هذا المعنى داخل في الأمر بالحكمة، فقال: «{بالحكمة}، أي: كل أحد على حسب حاله وفهمه وقوله وانقياده»[٢]، ويدل عليه حديث بعث معاذ إلى اليمن، فإن مما تضمنه الإشارة إلى اختلاف طبائع المدعوين إلى الإسلام في تفكيرهم ونفوسهم.

وقال ابن القيم: «قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾[النحل:١٢٥]، فذكر سبحانه مراتب الدعوة وجعلها ثلاثة أقسام، بحسب حال المدعوّ، فإنه إما أن يكون طالبا للحق راغبا فيه محبا له مؤثرا له على غيره إذا عرفه، فهذا يُدْعَى بالحكمة، ولا يحتاج إلى موعظة ولا جدال، وإما أن يكون معرضا مشتغلا بضد الحق، ولكن لو عرّفه عرَفه وآثره واتبعه، فهذا يحتاج مع الحكمة إلى الموعظة بالترغيب والترهيب، وإما أن يكون معاندا معارضا، فهذا يجادل بالتي هي أحسن»[٣].

وممّا يدل على هذا الأصل أن كل نبي يُبعث بلسان قومه، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ [إبراهيم:٤]، والمراد باللسان هنا: اللغة التي يتحدث بها قوم النبي[٤]، ومما يدخل

---

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي، عبد الرحمن بن ناصر ص/٤٥٢، تحقيق/ عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الرسالة، ط١-١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص/٤٥٢.

(٣) الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، ابن القيم، محمد بن أبي بكر (١٢٧٦/٤)، تحقيق/ علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة-الرياض، ط١-١٤٠٨هـ.

(٤) ينظر: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الطبري، محمد بن جرير (٥٩٢/١٣)، تحقيق/ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١-١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.

في معنى اللسان كل ما يؤدي إلى قبول دعوة التوحيد ويساعد على الاقتناع بها قياسا عليه وعلى الحكمة التي ذُكرت في الآية، وهي البيان والإيضاح.

الأصل التاسع: الاشتغال بتقرير أدلة التوحيد ومقوياته في النفوس أولى من الاشتغال بنقد مظاهر الانحراف عنه، ومعنى هذا الأصل: أن أقوى ما يؤثر في تمسك الناس بالتوحيد وأشد ما يزيد إقبالهم عليه الاشتغال بالبراهين والشواهد الدالة على صحته ومحاسنه، فقوة الإقناع بالتوحيد تقوم على بيان حقيقته وتكثيف الحديث عن أدلته وشواهده، فالناس في حاجة إلى أن تعلق قلوبهم بالله تعالى بكماله وجوده وعطائه، فإن ذلك من أقوى السبل التي تصرفهم عن التعلق بالمخلوقين والتوجه إليهم.

فكثير من عوام المسلمين ليس لديهم شبهات حول الاستغاثة بغير الله، وإنما لديهم إلف وتقليد وجهل وغفلة.

ومن أفضل السبل في إقناعهم بترك ما هم واقعون فيه: تكثيف الحديث عن فضل دعاء الله وفضل التعلق به ومناجاته، وجمع أكبر قدر ممكن من الأخبار والآثار التي فيها بيان لتعلق الصحابة والأئمة بالله تعالى وبدعائه ومناجاته، وبَثّه بينهم.

وكذلك جمع أكبر قدر ممكن من القصص والأخبار الصحيحة التي فيها ذكر لاستجابة الله تعالى لدعاء الداعين وتفريج كرباتهم، وبَثّه بينهم.

فهذه البناءات الإيمانية من أقوى ما يساعد عوام المسلمين على الانصراف عما هم واقعون فيه من انحراف في التعلق بغير الله تعالى.

ولكن كثيرا من الدعاة إلى التوحيد يغفلون عن هذا المعنى، فترى حديثهم عن الانحراف عن التوحيد ومظاهره أكثر من حديثهم عن معالم التوحيد وشواهده ومقوياته في النفوس.

ولا يراد بهذا الأصل تقليل أهمية الحديث عن مظاهر الانحراف عن التوحيد، وإنما المقصود بيان الموازين المحققة للدعوة الصحيحة.

وهذا الأصل هو الموافق لطريقة القرآن الكريم في الدعوة إلى التوحيد، فإن ذكر الأدلة الدالة على تعظيم الله وحبه وإجلاله والتعلق به في القرآن أكثر من ذكر الأدلة الدالة على بطلان عبادة الأصنام وإثبات نقصها.

الأصل العاشر: لا تتم الدعوة إلى التوحيد إلاّ بالجواب عمّا يعارضها، ومعنى هذا الأصل: أنّ التوحيد له في كل البلدان والأزمان شبهات وعقبات تقف في طريقه عند المخالفين له، فلا بد للداعية أن يقوم بتقديم الجواب النافع الصحيح عن كل ذلك.

وما يقف في طريق التوحيد يتنوع بتنوع المخالفين، فالمخالف الاشتراكي لديه من الشبهات والعقبات ما يناسب حاله، والمخالف العلماني لديه من الشبهات والعقبات ما يناسب حاله، وكذلك الحال في كل

المخالفين من أصحاب الأديان وغيرهم، كالهندوسية والبوذية واليهودية والنصرانية والأمم الخرافية.

فلا بد للداعية إلى التوحيد أن يدرك طبيعة القوم الذين سيدعوهم إلى التوحيد، ويتعرف ما عندهم من شبهات وعقبات، حتى يستعد لهم ويسلك المسالك الصحيحة في إقناعهم، ويدل على هذا الأصل حديث بعث معاذ إلى اليمن.

ودليل هذا الأصل الأمر بالحكمة في الدعوة إلى الله تعالى، فإن مقتضى الحكمة أن يذكر من العلم ودفع الباطل ما يناسب حال المدعو كما سبق بيانه.

الأصل الحادي عشر: أن أولية الدعوة إلى التوحيد لا تعني توحيدها، ومعنى ذلك أن الداعية لا يجب عليه أن يقتصر في دعوته على التوحيد فقط، ولا يحدثهم في شيء آخر، وإنما يصح له أن يدعوهم إلى ما يراه مناسبا لإصلاح حالهم من مكارم الأخلاق والأعمال وفاضلها.

ويدل على هذا الأصل قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۚ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ ۖ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف:٨٥]، فقد جمع نبي الله شعيب عليه السلام في دعوته لقومه إلى التوحيد الدعوة إلى أمور أخرى.

ومما يدل على ذلك ما كان معروفا عند الصحابة وكفار قريش من أن النبي ﷺ كان يدعوهم إلى عدد من المعاني غير التوحيد، فحين سأل هرقل أبا سفيان عن دعوة النبي ﷺ قال: «يقول: اعبدوا الله وحده، ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة»[(١)].

فإن قيل: يشكل على هذا الأصل حديث معاذ رضي الله عنه، وفيه: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله، فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة»[(٢)].

قيل: هذا ليس مشكلا؛ لأن المراد بهذا الحديث بيان ترتيب ما يُقبل منهم، وليس بيان ما يُذكر لهم في الدعوة وما يدعون إليه، فإن الكفار إذا أرادوا الدخول في الإسلام لا يُقبل منهم قبول الصلاة قبل قبول الشهادتين، وهكذا، ففرق بين مقام الدعوة ومقام ترتيب الاستجابة منهم.

الأصل الثاني عشر: أن أولية التوحيد لا تنافي التخصص الدعوي، ومعنى هذا الأصل: أنه مع الإقرار بأن التوحيد يجب أن يكون هو المُقَدَّم في الدعوة إلا أنه يجوز لبعض الدعاة من المسلمين أن يتخصصوا في الدعوة إلى شيء من أمور الدين، ويكون هو مجال دعوتهم، ومما يُعرفون به، وكونهم يتخصصون في ذلك

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، (٨/١)، حديث رقم (٧).
(٢) سبق تخريجه.

المجال لا يعني أنهم ينكرون أولية التوحيد أو أهميته.

وهذا المعنى أشبه شيء بالتخصصات العلمية، فلا شك أن الأمة في حاجة شديدة إلى علم التوحيد، تقوية وتصحيحا، وطلبه والتخصص فيه أولى من غيره من حيث الأصل، ومع ذلك لم يقل أحد من العلماء إنه لا يجوز التخصص في طلب العلوم الأخرى، وأن هذا التخصص ينافي أولية علم التوحيد وأهميته، فكذلك الحال في الدعوة إلى التوحيد.

الأصل الثالث عشر: لا بد من معالجة كل ما ينافي التوحيد، فإن الأمور المنافية للتوحيد واسعة جدا، فلا بد من الحرص على معالجتها كلها، فالانحرافات المنافية للتوحيد في أصله أو كماله ليست خاصة بتوحيد الألوهية، بل هي شاملة لأنواع التوحيد كلها، وما كان منها متعلقا بتوحيد الألوهية ليس خاصا بانحرافات القبوريين، بل هي شاملة لأنواع أخرى من الانحرافات، فعدد من المسلمين ليس لديه انحراف متعلق بالقبور، ولكن لديه انحرافات أخرى منافية لكمال التوحيد أو لأصله.

ومن أنواع القصور الدعوي أن بعضهم تنحصر عنده مظاهر الانحراف في التوحيد في نطاق ضيق، فترى دعوته وتعليمه لا يتوجه إلا إلى نوع منها، مع أن ثمة أنواعا أخرى، ربما هو نفسه يكون واقعا فيها لا يلتفت إليها ولا يحرص على إصلاحها.

الخاتمة

بعد هذه الجولة المُوَسَّعَة في منزلة الدعوة إلى التوحيد وقواعدها وأصولها، يمكن أن نخرج بعدد من النتائج والتوصيات، وذلك فيما يأتي:

الأمر الأول: أن فضل الدعوة إلى التوحيد ثبت من أدلة متعددة.

الأمر الثاني: أن الدعوة إلى التوحيد لا بد لها من ضوابط وقواعد حتى تكون محققة لمقصدها النبيل.

الأمر الثالث: أن قواعد الدعوة إلى التوحيد وضوابطها متنوعة، بعضها متعلق بمقصدها، وبعضها متعلق بمجالها، وبعضها متعلق بوسائلها.

الأمر الرابع: أن قواعد الدعوة إلى التوحيد وضوابطها من أهم المواضيع العلمية التي ينبغي الحرص عليها في الدراسات البحثية والاجتماعية؛ لأنها متعلقة بأشرف موضوع في دين الإسلام.

الأمر الخامس: من أهم ما يُوصي به الباحث: تفعيل قضية القواعد والضوابط في دراسة مواضيع العقيدة، فهي لا تقل أهمية عن مواضيع الفقه في هذا المجال، بل هي أولى بذلك، لكونها أشرف وأعلى قدرا.

قائمة المراجع

١- قوام السنة الأصفهاني، إسماعيل بن محمد، الحجة في بيان المحجة، تحقيق/ محمد بن ربيع بن هادي، دار الراية، السعودية، ط٢- ١٤١٩هـ=١٩٩٩م.

٢- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، تحقيق/ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف- المدينة النبوية- ١٤١٦هـ=١٩٩٥م.

٣- الدارمي، عثمان بن سعيد، الرد على بشر المريسي، تحقيق/ محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية- ١٣٥٨هـ.

٤- الذهبي، محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق/ مجموعة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٣- ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.

٥- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، القول السديد شرح كتاب التوحيد، تحقيق/ المرتضى الزين أحمد، مجموعة التحف النفائس الدولية، ط٣.

٦- السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن، تحقيق/ عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الرسالة، ط١- ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م.

٧- السفاريني، محمد بن أحمد، لوامع الأنوار البهية، مؤسسة الخافقين- دمشق، ط٢- ١٤٠٢هـ=١٩٨٢م؛

٨- سلطان العميري، قانون التأسيس العقدي، مركز تكوين للدراسات والبحوث- السعودية، ط٣- ١٤٤١ه=٢٠٢٠م.

٩- سليمان بن عبد الله آل الشيخ، تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، تحقيق/ زهير الشاويش، المكتب الإسلامي- بيروت، دمشق، ط١- ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.

١٠- الطبري، محمد بن جرير، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، مصر، ط٢- ١٣٨٧هـ=١٩٦٧م.

١١- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق/ د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط١- ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.

١٢- ابن العثيمين، محمد بن صالح، القول المفيد على كتاب التوحيد، دار ابن الجوزي- المملكة العربية السعودية، ط٢- ١٤٢٤هـ.

١٣- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق/ عبد السلام

عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط١- ١٤٢٢هـ=٢٠٠١م.

١٤- ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق/ عبد السلام هارون، دار الفكر- ١٣٩٩هـ=١٩٧٩م.

١٥- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، تحقيق/ علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة- الرياض، ط١- ١٤٠٨هـ.

١٦- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر- بيروت، ط٣- ١٤١٤هـ.

References:

1- Al-Bukhari, Al-Jamaa Al-Musnad Al-Sahih. Edited by Muhammad Al-Nasser, Beirut, Dar Touq Al-Najat, 1, 1422 AH.

2- Al-Darmi, Othman bin Saeed, The response to Bishr Al-Marisi, Prepared by: Muhammad Hamid Al-Fiqi, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya - 1358 AH.

3- Al-Dhahabi, Syar Allam Alnubala. Edited by Shuaib Al-Arnaout and others, Beirut, Al-Resala Foundation, 3rd edition, 1405 AH.

4- Al-Qawl Al-Mofeed on Kitab Al-Tawheed, Al-Othaimeen, Dar Ebn Al-Gawzi, E2, 1421Ah.

5- Al-Sa'di,1422 Eschatological promise its conditions and its impediments, The world of benefits publisher

6- Al-Saffarini, Muhammad bin Ahmed, Gorgeous lights (Lawami' Al-Anwar Al-Bahiya), Al-Khafeqin Foundation - Damascus, 2nd edition - 1402 AH = 1982 AD;

7- AL-Tabari,1422, The comprehensive declaration interpretation of the verse of the Qur'an, , prepared by: Abd Allah AL-Turkey, hajr publisher

8- Al-Tirmidhi, Al-Sunan. Edited by Ahmed Shaker and others, Egypt, Al-Babi Al-Halabi Library, 2, 1395 AH.

9- Ibn Attyah,1422, Al-Muharrar al-wajiz fi tafsir al-kitab al-'aziz (A Brief interpretation of the Holy Quran), prepared by: Abd Al- Salam Abd Al-Shafi Moahammad Beirut The Scientific Books publisher

10- Ibn Fares,1399, Dictionary of Language Standards, prepared by: Abd Al- Salam Haroon, intellect (Al-fikr) publisher

11- Ibn Jarir al-Tabari, Jami' al-Bayan. Edited by Ahmed Shaker, Beirut, Al-Resala Foundation, 1, 1420 AH.

12- Ibn Taymiyyah, 1418, A Great Compilation of Fatwa (Majmu al-Fatawa), collected by: Abd Al-Rahman Ibn qassem Saudi Arabia, The University of The Imam Mohammad bin So'oud

13- Ibn Taymiyyah, Total Fatwas. Edited by Abdul Rahman bin Qasim, Al-Madinah, King

Fahd Complex, 1416 AH.

14- Muslim, Sahih Muslim. Edited by Muhammad Fouad Abdel-Baqi, Beirut, Heritage Revival House

15- Qawam Al-Sunnah Al-Asfahani, Ismail bin Muhammad, The argument in the statement of the straight path , Prepared by: Muhammad bin Rabei bin Hadi, Dar Al-Raya, Saudi Arabia, 2nd edition 1419 AH = 1999 AD.

16- Sultan Al-Amiri, The Nodal Foundation Law, Takween Center for Studies and Research - Saudi Arabia, 3rd-1441 AH = 2020 AD.